الفصل الثامن

من ثمرات الإخلاص

للإخلاص ثمرات طيبة فى النفس والحياة نجملها فيما يلى :

● **السكينة النفسية** :

١ - فهو يمنح صاحبه سكينة نفسية ، وطمأنينة قلبية ، تجعله منشرح الصدر ، مستريح الفؤاد ، فقد اجتمع قلبه على غاية واحدة ، هى رضا الله عَزَّ وجَلَّ ، وانحصرت همومه فى هَمٍّ واحد ، هو سلوك الطريق الذى يوصل إلى مرضاته ، ولا ريب أن وضوح الغاية ، واستقامة الطريق إليها : يريح الإنسان من البلبلة والاضطراب بين الاتجاهات ، وتنازع الرغبات ، وتعدد السبل .

وقد ضرب الله مثلاً للمؤمن الموحِّد بالعبد الذى له سيد واحد ، عرف ما يرضيه وما يسخطه ، فجعل كل همه فى إرضائه ، واتباع ما يحبه . . وللمشرك بالعبد الذى يملكه شركاء متشاكسون ، كل واحد يأمره بخلاف ما يأمره به الآخر ، وكلٌ يريد منه غير ما يريد صاحبه ، فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، الحَمْدُ لله ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومعنى « سَلَماً » له : أى خالصاً له لا يشاركه فيه أحد .

وبهذا تحرر الإنسان المؤمن - بإخلاصه العبودية لله - من تعاسة العبودية لغيره : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد القطيفة » وسعد بالعبودية لله وحده .

---

(١) الزمر : ٢٩

لقد جمع همومه فى هَمٍّ واحد هو رضوان الله تعالى ، وجعل نيته وقصده فى الآخرة ، فهان عليه كل ما يلقى فى هذه الدنيا .

يقول الرسول ﷺ : « مَن جعل الهموم هماً واحداً ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبته الهموم ، لم يبال الله فى أى أودية الدنيا هلك » (١) .

ومعنى : تشعبته الهموم : توزعته وتقسَّمت قلبه وإرادته : بين المال والجاه والشهوات وما أكثرها ، بخلاف المؤمن الذى ركز كل همه فى إرضاء ربه .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « مَن كانت الدنيا همَّه ، فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له ، ومَن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا ، وهى راغمة » (٢) .

* *

● **القوة الروحية :**

٢ - والإخلاص يمنح المخلص قوة روحية هائلة ، مستمَدة من سمو الغاية التى أخلص لها نفسه ، وحرَّر لها إرادته ، وهو رضا الله ومثوبته .

فإن الطامع فى مال أو منصب أو لقب أو زعامة : ضعيف كل الضعف ، إذا لاح له بادرة أمل فى تحقيق ما يطمع فيه من دنيا . . ضعيف أمام الذين يملكون إعطاءه ما يطمح إليه . . ضعيف إذا خاف فوات مغنم يرجوه ، أما الذى باعها لله ، فهو موصول بالقوة التى لا تضعف ، والقدرة التى لا تعجز ، ولهذا كان فى تجرده وإخلاصه أقوى من كل قوة مادية يراها الناس .

وقد صوَّر حديث - رواه الترمذى بسند ضعيف - مقدار القوة الروحية الهائلة ، التى يملكها مَن أخلص قلبه لله ، يقول الحديث الذى رواه أنس بن مالك :

« لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال ، فألقاها عليها ،

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عمر ، والبيهقى ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وأقره المنذرى والذهبى (المستدرك : ٢/٤٤٣) .

(٢) رواه ابن ماجه عن زيد بن ثابت (٤١٠٥) وقال فى الزوائد : إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

فاستقرت ، فعجبت الملائكة من خلق الجبال ، فقالت : يا رَبِّ ؛ هل فى خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ، قالت : يا رَبِّ ؛ هل فى خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالت : يا رَبِّ ؛ هل فى خلقك شىء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، قالت : يا رَبِّ ؛ هل فى خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، قالت : يا رَبِّ ؛ هل فى خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم يتصدَّق بيمينه ، ويخفيها عن شماله » ! (١) .

وهكذا يُصوِّر لنا هذا الحديث أن القوة الروحية أعظم من كل القوى المادية ، وأن قوة الإيمان والإخلاص تفوق قوة الجبال التى تمسك الأرض أن تميد ، وقوة الحديد الذى يقطع الجبال ، وقوة النار التى تذيب الحديد ، وقوة الماء الذى يطفئ النار ، وقوة الريح التى تحرك الماء ، أقوى من ذلك كله قلب ابن آدم حين يخلص لله ، فيتصدق بيمينه لا تعلم بها شماله . وهو تصوير نبوى بليغ معبِّر عن اجتهاده فى إخفاء صدقته بعداً عن مظنة مراءاة الناس .

وذكر الغزالى فى « الإحياء » قصة ترمز إلى هذا المعنى ، وهو : ما يمنحه الإخلاص من قوة غير عادية لصاحبه ، لا توجد عند غيره .

إنها قصة العابد الذى سمع أن شجرة يعبدها الناس من دون الله ، فحمل فأسه ، وذهب مصمماً على أن يقطعها ، ويقطع معها دابر فتنة تقديسها وعبادتها ، وفى الطريق قابله إبليس فأراد أن يثنيه فأبى ، فتصارعا ، فصرع العابد إبليس ، وبدا كأنه ريشة فى يده ، وهنا بدأ إبليس فى مفاوضة ماكرة مع العابد : أن يعود ويدع الشجرة ، فإنَّ قطعها لا يفيد ، فقد يعبدون شجرة أخرى ، وتعهَّد أن يعطيه كل يوم ديناراً ، يجده تحت وسادته ، فينتفع به ، وينفق منه على المساكين . . وما زال إبليس بالرجل ، حتى اقتنع ، وسلَّمه مبلغاً مقدماً ، ثم ظل مدة يتسلم فيها الدينار كل صباح وفق ما اتفقا عليه .

---

(١) رواه الترمذى عن أنس وقال : غريب ، ورواه أيضاً أحمد ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى ، والبيهقى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والضياء فى المختارة ، كما ذكر الزبيدى فى « شرح الإحياء » (٨/ ٢٦٥) .

ولكن العابد فوجئ يوماً بأنه لم يجد الدينار تحت الوسادة ، كما اعتاد ، فصبر عدة أيام ، لعل صاحبه يفى له بما وعده ، بَيْد أنه لم يفعل . . فما كان من العابد إلا أن حمل فأسه ، وذهب ليقطع الشجرة من جديد ، فقابله إبليس ، فتحدَّاه ، وتنازعا واصطرعا ، فصرع إبليس الرجل هذه المرة ، وكان كأنه عصفور بين رجليه !

وهنا سأله العابد : ما الذى جعله يغلبه هذه المرة ، بعد أن انتصر على إبليس بجدارة فى المرة الأولى ؟ وهنا قال له إبليس : لقد كان غضبك فى المرة الأولى لله ، فكان لديك من القوة ما لم يكن لى قِبَل بها ، ولا طاقة لمواجهته ، فهزمتُ أمامك بسرعة . أما هذه المرة فكان غضبك لانقطاع الدينار ، فلم يكن عندك من القوة ما كان من قبل ، وهزمتَ أمامى بسرعة البرق .

وهنا ظهر الفرق بين الغضب للدرهم والدينار ، والغضب للواحد القهَّار .

إن المخلص لله لا يلين للوعد ، ولا ينحنى للوعيد . . لا يذله طمع ، ولا يثنيه خوف . . أُسوته فى ذلك النبى ﷺ الذى عُرِضَ عليه المُلْك والشرف والمال وسائر أعراض الدنيا ليكف عن دعوته ، فقال فى إصرار وصلابة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمرَ ما تركته ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » (١) .

أما لو كان للنبى ﷺ شهوة خفية فى مال أو مُلْك أو سيادة لضعفت مقاومته أمام العروض المغرية ، يقدمها له سادة قريش ، لكنه عرف غايته فأخلص لها ، وعرف ربه فلم يُشرك به شيئاً .

* *

● الاستمرار فى العمل :

٣ - ومن آثار الإخلاص : أنه يمد العامل بقوة الاستمرار ، فإن الذى يعمل للناس ، والذى يعمل لشهوة البطن أو الفَرْج ، يكف إذا لم يجد

---

(١) رواه بنحوه ابن إسحاق فى المغازى (١/ ١٧٠) . ومن طريقه ابن جرير (٢/ ٦٧) بإسناد معضل ، وروى هذه القصة الطبرانى مختصراً فى الأوسط من حديث عقيل بن أبى طالب بلفظ آخر (انظر : تخريج فقه السيرة للألبانى ص ١١٤ ، ١١٥) .

ما يشبع شهوته ، والذى يعمل أملاً فى شهرة أو منصب ، يتراخى ويتثاقل إذا لاح له أن أمله بعيد المنال ، والذى يعمل لوجه الرئيس أو الأمير ، ينقطع أو يتوانى إذا عُزِل الرئيس أو مات الأمير .

أما الذى يعمل لله فلا ينقطع ولا ينثنى ولا يسترخى أبداً ؛ لأن الذى يعمل له لا يغيب ولا يزول ، فوجه الله باق إذا غابت وجوه البشر ، أو هلك الخلق كل الخلق : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) . ولهذا قال الصالحون : ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل ! وهذا ما صدَّقه الواقع ، وما رأيناه ولمسناه ، ولا زلنا نراه ونلمسه فى كل زمان ومكان .

* *

● تحويل المباحات والعاديات إلى عبادات :

٤ - والإخلاص هو « إكسير » الأعمال ، الذى إذا وُضِع على أى عمل ولو كان من المباحات والعادات حوله إلى عبادة وقُرْبة لله تعالى . . وفى الحديث أن النبى ﷺ قال لسعد : « إنك ما تُنفق نفقة تبغى بها وجه الله تعالى إلا أُثِبْتَ عليها ، حتى اللُّقمة تضعها فى فِى (أى فم) امرأتك » (٢) .

وقال تعالى فى شأن الذين يجاهدون فى سبيله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

فجعل جوعهم وعطشهم ومشيهم ونفقتهم مما يسجل لهم فى رصيد

---

(١) القصص : ٨٨

(٢) متفق عليه من حديث سعد .

(٣) التوبة : ١٢٠ - ١٢١

حسناتهم عند الله عَزَّ وجَلَّ ، ما دام ذلك فى سبيل الله ، ولن تكون هذه الأشياء فى سبيل الله إذا أدَّاها المسلم لتكون كلمة الله هى العليا .

وأكثر من ذلك ما جاء فى مثوبة مَن ارتبط فرساً ليجاهد عليها فى سبيل الله .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « مَن احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله ، وتصديقاً بوعده ، فإن شبعه وريه ، وروثه وبوله ، فى ميزانه يوم القيامة » . . يعنى : حسنات !

وذلك أن الوسائل والآلات بحسب المقاصد والغايات ، فكل ما يعين على الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ، ونصرة دعوته ، من عدة وآلة وتدريب وكسب خبرة ومهارة ، فهو قُرْبة إلى الله ، فبها الأجر والثواب .

* *

• إحراز ثواب العمل وإن لم يتمه أو لم يعمله :

٥ - ومن بركات الإخلاص لله : أن المخلص يستطيع أن يحرز ثواب العمل كاملاً وإن لم يقدر على إتمامه بالفعل ، لنستمع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (١) .

بل يستطيع المسلم بنيته الخالصة لله أن يدرك ثواب العمل كاملاً ، وإن لم يؤدِّه ولم يشرع فيه ، ولهذا أمثلة كثيرة جاءت بها الأحاديث .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا ؛ حبسهم العذر » .

وروى النسائى وابن ماجه عن أبى الدرداء يبلغ به النبى ﷺ : « مَن أتى

---

(١) النساء : ١٠٠

فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل ، فغلبته عيناه حتى أصبح ، كتب له ما نوى ، وكان صدقة عليه من ربه » (١) .

وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال : « مَن سأل الله الشهادة بصدق ، بلَّغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه » (٢) .

وقال أيضاً : « مَن طلب الشهادة صادقاً ، أُعطيها ، ولو لم تصبه » (٣) والحديثان يؤكدان وصفاً أو شرطاً لا بد منه ، لمن يحصل على « الشهادة » وهو على فراشه ، لم يُقْتَل ولم يُصَب ، وهو أن يكون سؤاله للشهادة « بصدق » ، أن يطلبها « صادقاً » . فما كل مَن يسأل الشهادة بلسانه ، يكون صادقاً فى أعماقه ، فالمدار على السرائر ، والله أعلم بها .

وقد يتقرَّب المخلص إلى ربه بعمل فيخطئ فى تأديته ، ويضعه فى غير موضعه ، فتأتى نيته الصالحة شفيعاً ، فتصحح له خطأه ، وتكمل له نقصه .

وفى هذا جاء حديث الصحيحين فى الرجل الذى تصدَّق فى ثلاث ليال فصادفت صدقته مرة رجلاً سارقاً ، ومرة امرأة زانية ، والثالثة رجلاً غنياً ، ولكنه حمد الله على كل حال ، وأراد الله تعالى أن يثبت قلبه ويشرح صدره ، فأتاه فى المنام مَن يقول له : « أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله » ، وتقبَّل الله صدقته ببركة نيته ، ولم يضع أثرها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وذلك جزاء المخلصين .

* *

---

(١) وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب : إسناده جيد ، وقد رواه النسائى فى قيام الليل (٣/ ٢٥٨) ، وابن ماجه (١٣٤٤) ، وكذلك ابن حبان فى صحيحه (٦/ ٢٥٨٨) من حديث أبى ذر - أو أبى الدرداء - على الشك ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى (١/ ٣١١) .

(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن من حديث سهل بن حنيف . صحيح الجامع الصغير (٦٢٧٦) .

(٣) رواه مسلم أيضاً من حديث أنس ، ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى (٢/ ٧٧) بلفظ : « مَن سأل الله القتل فى سبيل الله صادقاً ، ثم مات ، أعطاه الله أجر شهيد » .

● النصر والكفاية الإلهية :

٦ - ومن ثمرات الإخلاص : أن المخلص مؤيَّد من الله ، مكفى به سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ (١) .

وعلى قدر إخلاص المرء لربه ، وتجرده له ، يكون مدد الله تعالى وعونه وكفايته وولايته . إن الإمداد على قدر الاستعداد : إمداد الله بالنصر والتأييد ، أو بالتوفيق والتسديد ، على حسب ما فى القلوب من تجريد النية ، وصفاء الطوية . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِى أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُم وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (٣) .

وقد جاء عن عمر رضى الله عنه فى رسالته الشهيرة فى القضاء قوله : « فمَنْ خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومَن تزيَّن بما ليس فيه شانه الله » .

قال ابن القيم فى شرح هذه الكلمات فى « الإعلام » : « هذا شقيق كلام النبوة ، وهو جدير بأن يخرج من مِشْكَاة المحدَّث الْمُلْهَم ، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم ، ومن أحْسَن الإنفاق منهما نفع غيره ، وانتفع غاية الانتفاع : فأما الكلمة الأولى فهى منبع الخير وأصله ، والثانية أصل الشر وفصله ؛ فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه ؛ فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، ورأسُ التقوى والإحسان خلُوصُ النية لله فى إقامة الحق ، والله سبحانه لا غالب له ، فمَنْ كان معه فَمَنْ ذا الذى يغلبه أو يناله بسوء ؟ فإن كان الله مع العبد فمَنْ يخاف ؟ وإن لم يكن معه فمَنْ يرجو ؟ وبمن يثق ؟ ومَنْ ينصره من بعده ؟

فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً ، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شىء ، ولو كادَتْهُ السماوات والأرض والجبال لكَفَاه الله مؤنتها ، وجعل له فَرَجاً ومخرجاً ؛ وإنما يُؤْتَى العبدُ من تفريطه وتقصيره فى هذه

---

(١) الزمر : ٣٦ (٢) الأنفال : ٧٠ (٣) الفتح : ١٨

الأمور الثلاثة ، أو فى اثنين منها ، أو فى واحد ؛ فمَن كان قيامه فى باطل لم يُنصر ، وإن نُصِرَ نصراً عارضاً فلا عاقبة له ، وهو مذموم مخذول . وإن قام فى حق لكن لَم يقم فيه لله ، وإنما قام لطلب المَحْمَدَة والشكور والجزاء من الخلق ، أو التوصل إلى غرض دنيوى ، كان هو المقصود أوّلاً ، والقيام فى الحق وسيلة إليه ، فهذا لم تُضمن له النُصرة ؛ فإن الله إنما ضمن النُصرة لمن جاهَدَ فى سبيله ، وقاتَلَ لتكون كلمة الله هى العليا ، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه ، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين ، وإن نُصِرَ فبحسب ما معه من الحق ؛ فإن الله لا ينصر إلا الحق . وإذا كانت الدَولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر ، والصبرُ منصور أبداً ؛ فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة ، وإن كان مُبْطلاً لم يكن له عاقبة ، وإذا قام العبد فى الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ، ولَم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه ، مفوِّضاً إليه ، بريّاً من حَوْل والقوة إلا به ، فله من الخذْلان وضعف النُصرة بحسب ما قام به من ذلك . ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين فى أمر الله لا يقوم له شىء البتة ، وصاحبه مؤيَّد منصور ، ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء .

قال الإمام أحمد : حدَّثنا داود ، أنبأنا شعبة ، عن واقد بن محمد بن زيد ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : مَنْ أسْخَطَ الناسَ برضاء الله عَزَّ وجَلَّ كفاه الله الناس ، ومَنْ أرضى الناسَ بسَخَطِ الله وكلَه إلى الناس » (١) .

* *

● **تأييد الله تعالى ومعونته فى الشدائد والأزمات :**

٧ - ومن ثمرات الإخلاص : أن الله تعالى يمد المخلص بعونه ، ويحرسه بعينه التى لا تنام ، ولا يتخلى عنه إذا حلَّت بساحته الخطوب ، وأحاطت به الشدائد والكروب ، فهو سبحانه يستجيب دعاءه ، ويلبى نداءه ، ويكشف عنه الغمة .

ومن عجيب ما ذكره القرآن فى ذلك : استجابة الله تعالى دعاء المشركين ، إذا جرت بهم الفلك فى البحر ، وهاجت عليهم الريح ، وأحاط بهم الموج من كل مكان ، فيدعون الله فى تلك اللَّحظات بصدق وإخلاص ، فيستجيب

---

(١) إعلام الموقعين : ٢/ ١٥٩ ، ١٦٠

لهم ، وإن غيَّروا بعد ذلك وبدَّلوا . يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) .

وإنما أنجاهم واستجاب لهم ، لأنهم ﴿ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فقد رجعوا فى تلك اللَّحظة إلى الفطرة ، وسقطت الآلهة المزيفة ، ولم يبق لديهم إلا الله يدعونه بإخلاص ويتجهون إليه .

ومن أبرز الأمثلة والوقائع فى أثر الإخلاص فى إنقاذ المكروب من كربته : قصة الثلاثة « أصحاب الغار » .

فمن رحمة الله تعالى : أن الأرض لا تخلو من المخلصين ، فهم للحياة الروحية كالماء والهواء للحياة المادية ، وقد عرف التاريخ نماذج رائعة ، تجسد الإخلاص فى وقائع مضيئة ، تضرب المثل ، وتبرز الأسوة للناس يحسن هنا أن نذكر بعضاً منها ، لنتخذ منه عظة وقدوة .

بدأ الحافظ المنذرى كتابه « الترغيب والترهيب » بالترغيب فى الإخلاص والصدق والنية الصالحة ، ثم جعل أول حديث فى كتابه حديث « أصحاب الغار » الذى قصَّ علينا النبى ﷺ قصتهم ، لما فيها من عبرة لأُولى الألباب .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضى الله عنهما قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ (٢) مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ ، فَدَخَلُوهُ ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ .

« فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لِى أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ (٣)

---

(١) يونس : ٢٢ - ٢٣ (٢) النفر : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

(٣) من الغَبوق - بفتح الغين - وهو الذى يُشرب بالعشى ، ومعناه : كنت لا أقدم عليهما فى شرب اللبن أهلاً ولا غيرهم .

قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلا مَالاً ، فَنأى [1] بى طَلَبُ شَجَرٍ يَوْماً ، فَلم أرُحْ عَلَيْهِمَا [2] حتى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا ، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ ، فكَرِهْتُ أنْ أغْبُقَ قَبْلَهُمَا أهْلاً أوْ مَالاً ، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلى يَدى ، أنتظرُ استيقَاظَهُمَا حَتى بَرِقَ الْفَجْرُ - زاد بعض الرُّواة : « والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ [3] عِنْدَ قَدَمِى » - فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَفَرِّج عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا » .

قَالَ النبىُّ ﷺ : « وَقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ كانَتْ لى ابْنَةُ عَمٍّ كَانَتْ أحَبَّ النَّاسِ إلىَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَامْتَنَعَتْ مِنّى ، حتى أَلَمَّت بها سَنَة [4] مِنَ السنِينَ ، فَجَاءَتْنِى ، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ ، عَلى أنْ تُخْلِى بَيْنِى وَبَيْنَ نَفْسِهَا ، فَفَعَلَتْ ، حَتى إذا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ : لا يحِلُّ لَكَ أنْ تَفُضَّ الخَاتم [5] إلا بِحَقِّه ، فَتَحَرَجْتُ مِنَ الوقُوعِ عَلَيْهَا ، فانصرفْتُ عنْها ، وهىَ أحَبُّ النَّاسِ إلىَّ ، وتَرَكْتُ الذَّهبَ الذى أعْطَيْتُهَا ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نحْنُ فِيهِ ، فانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، غَيْرَ أنهُمْ لا يستَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا » .

قال النبى ﷺ : « وَقَالَ الثَّالِثُ : اللَّهُمَّ إنِّى اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وأعْطَيْتُهُم أجْرَتَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذى لهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أجْرَهُ حَتى كَثُرَتْ مِنْهُ الأمْوَالُ ، فَجَاءَنِى بَعْدَ حِينٍ ، فَقَالَ لى : يَا عَبْدَ الله ، أدِّ إلىَّ أجْرِى ، فَقُلْتُ : كلُّ مَا تَرَى مِنْ أجْرِكَ ، مِنَ الإبِلِ والْبَقَرِ والْغَنَمِ والرَّقِيقِ ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ الله ؛ لا تَسْتَهْزِئ بِى ! فَقُلْتُ : إنى لا أسْتَهْزِئُ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ ، فَسَاقَهُ : فَلَم

---

(١) نأى بى : من النأى ، وهو البُعْد .

(٢) لم أرح عليهما : من الرواح ، وهو الرجوع آخر اليوم ، مقابل الغدو .

(٣) يتضاغون : أى يصيحون من الجوع .

(٤) السنة : العام المقحط الذى لم تُنبت الأرض فيه شيئاً .

(٥) تفض الخاتم : كناية عن استباحة الفَرْج ، أى الجماع .

يَتْرُكْ منْهُ شَيْئاً ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتغَاءَ وَجْهكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نحْنُ فيه ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ » (١) (رواه البخارى ومسلم) .

* *

● خلاص المجتمعات واستقامة الحياة :

ولا يفوتنا أن نُذَكِّر بما نبّهنا عليه من قبل : أن ثمرة الإخلاص ليست مقصورة على الآخرة ، بمعنى أننا لا نطلب الإخلاص لتكون أعمالنا مقبولة عند الله ، ونفوز فى الآخرة بالجنَّة ، ونُزَحزَح عن النار فحسب ، فهناك فوق هذا : أن الإخلاص مطلوب لكى تستقيم الأمور فى هذه الدنيا ، ويصح الصحيح ، ويحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويسود الخير ، ويقوم العدل ، ويزول الظلم والظلام ، وتتخلص المجتمعات من آثار الفساد .

إنما تفسد الحياة ، وتختل موازينها ، إذا اختفى الإخلاص ، وبرز النفاق ، وعلا صوت المنافقين ، وراجت بضاعتهم . إن هؤلاء لا يبالون - فىْ سبيل شهوات أنفسهم ومصالحهم الآنية المادية الدنيوية العاجلة - أن يجعلوا الأقزام عمالقة ، والشياطين ملائكة ، واللصوص أشرف الناس ، وأن يتهموا الشرفاء ، ويخونوا الأمناء ، ويكذبوا على الأبرياء ، وأن يجعلوا السراب ماء ، والأصدقاء لآلئ ، كما رأينا ذلك فى بعض الشعراء قديماً ، وبعض الصحفيين حديثاً .

إن حب الدنيا ، وحب مظاهرها الكاذبة ، من المال والجاه والمنصب والزعامة والظهور ، هو الذى صنع الفراعنة والجبابرة ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا

---

(١) دل هذا الحديث الشريف على أن التوسل إلى الله بالعمل الصالح من أعظم الوسائل للخلاص من المآزق والأزمات ، وهذا مما لا خلاف عليه ، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا أُريد به وجه الله تعالى ، ولهذا قال كل واحد منهم بعد أن ذكر موقفه الفريد : « اللَّهُمَّ إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه » ، وقد كان من أساليب التربية النبوية المؤثرة : ذكر روائع القصص التى تؤخذ منه العظة والعبرة . ومما يجدى فى الدعوة والتربية تجميع ما صح من هذه القصص ليتنفع بها الدعاة والمربون .

فيها الفساد ، والذى مكن لهؤلاء ومهد لهم الأرض ، هم المنافقون الذين يتمسحون بأعقابهم ، ويبررون كل تصرفاتهم ، ويجعلون كل أقوالهم حكماً ودرراً ، وكل أعمالهم بطولات وغُرراً .

ولا ينقذ الأُمم من الضياع والكساد والفساد إلا المخلصون الذين يقومون لله لا للناس ، ويعملون للحق لا للهوى ، ويجاهدون لإعلاء كلمة الله ، لا لإعلاء كلمة فلان أوعلان .

إن الخلاص كل الخلاص ، لا يتحقق إلَّا بالإخلاص .

* * *